

تقديم

عندما بَحِث اللغويون المحدثون عن كلمة تدل على معنى « السينيما » في اللغات الأجنبية ، اهتموا إلى كلمة « خيالة » . ولاشك في أنهم نظروا مَلِيًّا في أداة هذا الفن الذى يَصنع من الخيال حقيقة أو ما يُشبه الحقيقة ، ويتوهم معه المرء أن الأفكار والحكايات والروايات والأساطير تتمثل واقعا مُشاهدا منظورا مسموعا . ومع الأيام، تراجعت كلمة « الخيالة » وفرضت الكلمة الأجنبية نفسها على الألسنة والأقلام (Cinéma) .

ومن حق العالم الموقر الشيخ محمد رشيد رضا علينا أن نذكره في هذا المقام . فقد كان - في مطلع القرن العشرين - شغوفا بتعريب بعض الكلمات الأجنبية التى كانت متداولة على ألسنة الناس في مصر وعدد من البلاد العربية ، وفدّت وانتشرت بسبب الاحتلال والاستعمار بوجهيه الكريهين الإنجليزى والفرنسى ، أو بسبب «المتفرنجين» من العرب الذين حاولوا الانسلاخ من تراثهم وعروبتهم ، طمعا في مكسب ، أو لهفة على منصب ، أو رضوخا لمأرب ، أو إذعانا لسلطان . فكان من مآثر الشيخ « الرشيد » رضا (رحمه الله) أنه بادر بمحاولة لقمع ادعاء الواهمين المبطلين بأن اللغة العربية قاحلة قاصرة عاجزة عن استيعاب الألفاظ والمصطلحات العلمية والابتكارية المستوردة من أوروبا والشرق البعيد والغرب ، فأفرد في مجلته «المنار» بابًا للتعريب والاشتقاق (ابتداء من سنة ١٩١٠) وضع فيه كلمة «السيارة» مقابل الأتوموبيل ، و «الحاكي» بدلا من الفونوغراف ، و «المِسْرَة»

بمعنى التليفون، و«المذياع» أى الراديو، و«التصوير الشمسى» بديلا عن الفوتوغرافيا، و«الخيالة» تعريبا للسينيماتوغرافيا.. وهكذا. ثم نشطت المجمع اللغوية فى المنطقة العربية، وأفاضت فى التعريب والتصويب، وأقرت بعض المصطلحات المتداولة.

كان التصوير الضوئى (أو الشمسى) هو الأب الشرعى للسينما. فإن تثبيت الصورة - أو المنظر - على لوحة أو ورقة (فى أواسط القرن التاسع عشر)، كانت البداية لعصر حافل بالمرئيات، أحدث ثورة فى فن الرسم (التصوير الزيتى) الذى راح يبحث عن أساليب جديدة فى التعبير، بعد أن حققت الصورة الضوئية (الفوتوغرافية) بضغطه واحدة على آلة التصوير (الكاميرا) صيغة مثالية فى تسجيل الواقع بكل تفاصيله ومحتواه، وخاصة بعد ابتكار التصوير الملون.

ثم جاء الشريط أو الفيلم السينمائى معتمدا على خداع بصرى مصدره: أن العين البشرية لا تلمح الفرق الزمنى إذا كان أقل من $\frac{1}{16}$ ثانية بين الصور المتتابعة بسرعة معينة أمام المشاهد فى قاعة مظلمة. فتحركت الصورة رغم ثباتها: فالناس يمشون، والرياضيون يقفزون، والجنود يتعاركون، والسيارات تجرى، والقطارات تسرع، ومياه الأنهار تتدفق.. فلما أضيف الصوت إلى الصورة (فى أواخر العشرينيات من القرن العشرين) اكتمل تجسيد الخيال أو الإيهام، وصارت السينما - أو الفن السابع - واقعا ناميا مزدهرا، ومؤثرا فى حياة الناس.

تغيرت النظرة إلى العالم، بل إلى الكون بأبعاده وأفاقه وإيحاءاته. وتقاربت المسافات، والقارات، والبلدان، والشعوب. ولأول مرة فى التاريخ تنطبع صور، ومشاهد، وألوان، ومواقف، وشخصيات فى أذهان وذاكرة ملايين الناس من مختلف الأمم والشعوب، فى فترات زمنية قصيرة؛ فلما أقبل التليفزيون فى أواسط القرن العشرين، تلاشى البعد الزمنى فى هذا الانطباع والاختزان فى الذاكرة، وصار معروفا ومألوفا أن «يرى» عدة ملايين - أو بلايين - من سكان الأرض فى وقت

واحد شخصا معنا ، أو منظرا محددا ، أو حَدثًا أنيا ، ويسمعون أيضا صوته أو كلامه ، ويرقبون معا أفعاله وإنجازاته .

لم تَقْتَصِر مستحدثات السينما على تسجيل الواقع وعَرَضُه ، وإنما نجحت نجاحا بالغاً مُبهرًا في تأكيد قُدراتها كأداة أو وسيلة تعبير ، ذات لغة خاصة ، وتعبيرات مميزة ، وإيحاءات متشعبة ، ومُفردات أو عناصر متنوعة من التشخيص ، والتتابع ، والإضاءة ، والموسيقى ، والمؤثرات ، والحيل ، وتنسيق المناظر (الديكور) ، وتزيين الوجوه وتشكيل الملامح (الماكياج) ، والملابس ، وحجم اللقطات وزواياها .. والمُخرج (أو قائد الفريق : المايسترو) هو المبدع المسئول عن ذلك كله ، بمساعدة مجموعة كبيرة من الفنانين والفنيين والخبراء والمعاونين ، في « صناعة » كانت تتكلف - للفيلم الواحد - عشرات ، ثم مئات ، ثم آلاف ، والآن ملايين الجنيهات أو الفرنكات أو الدولارات .. وتنتهى في الأسواق بمكاسب ضخمة وشهرة واسعة ، أو خسائر كبيرة وانتقادات لاذعة .

ليس مبالغة أن السينما (أى الخيالة) تحولت إلى « عالم » طريف ممتع متعدد الجوانب ، متنامى الأبعاد ، متزايد المقاصد والغايات ، وبالتالي تضاعفت إسهاماتها الثقافية ، والعلمية ، والإعلامية ، والاجتماعية ، والدعائية ، والترفيهية ، للكبار وللصغار؛ فأصبحت وأمسّت - بإيجابياتها وسلبياتها - جزءا من الحياة اليومية في معظم بلاد العالم .
وهذا الكتاب ..

سياحة حول هذا « العالم » السينيمائى فى شرق وغرب ، وداخل رموزه وكنوزه ، وصروحه وآثاره الباقيات الراسخات . نقصد بذلك : بعضا من معالم فن السينما - وقد بلغ من العمر والسنوات مائة - ويتوقف التجوال عند طائفة من رواده العمالقة الأفذاذ، وفيهم من يمثلون روافد نابضة متعاقبة من الرجال والنساء ، الذين رحلوا عن دنيانا وتركوا للأجيال وللتاريخ أعمالا تُشهد ، وأقوالا

تُرَدَّد ، ومواقف تُذَكَّر ، وطرائف تُؤَثَّر ، وحكايات خلف الكاميرا تُفصح عن كثير ،
وهى أحيانا قد تُثِير .. وربما تدعو إلى مقارنة بين جيل وجيل ، بين عصر الرواد
الجادين المبتكرين ، وعصر التابعين المترفين المدللين ..

ولئن اقتصرَت الفترة التى يتناولها هذا الكتاب على بواكير العمل السينمائى
وطرائفه وغرائبه وإبداعاته ، فإن هذا الفن نما وتطور وأجاد وتعزَّز .. وفى وطننا
العربى - من الخليج إلى المحيط - أثمر نهضة فنية متسارعة ؛ التنوع فيها واضح
والتنافس محبوب مرغوب ؛ ففى سوريا ولبنان وفلسطين والأردن والعراق
مجددون مبدعون ، وفى دول الجزيرة العربية محافظون مجتهدون ، وفى المغرب
العربى سبَّاقون مبتكرون .. ومصر واسطة العقد تفاخر بالجميع ، وتمضى معهم
فى موكب الفن الجميل الجليل ...

فؤاد شاكر

القاهرة : نوفمبر ١٩٩٩